مفهومات الوراثة في القرآن

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ ٢٠٠٨/٤/٤م

حين نستعرض لفظ الوراثة في كتاب الله تبارك وتعالى نجد أنه يعرض لأربعة أنواع:

١ - وراثة الكتاب.

٢ - وراثة الأرض.

٣ - النموذج.

٤ - وراثة الجنة.

وقد استعرضت آيات الكتاب المنير متلمسًا من دروس القرآن الكريم ما ينفعنا ويرفعنا في مناهجنا التربوية، ونحن نبحث صباحَ مساءَ عن طريق الإصلاح في وقتٍ ننحدر فيه إلى هاويةٍ ليس فيها إلا سيءُ الأخلاق ومذمومُ الأمور.

وربما لا نحتاج كثيرًا إلى شرح معنى الوراثة، لأن كلمة الميراث شائعةٌ متداولة يفهم الإنسان من خلالها كيف يصل إليه شيءٌ ما من غير مجهود، فحين يوزع الميراث على أبناء المتوفى وبناته وقرابته يصل إليهم مال من غير مجهود.

ولا يتعلق حديثنا اليوم بهذا النوع من الميراث، لكنه ينطلق إلى الأنواع الأربعة المعنوية التي لها ما لها من الدلالات المتعلقة بنهضة الأمة وحضارتها:

١ - وراثة الكتاب: وكتابنا نحن أمةَ سيدنا محمَّد صلى الله عليه وسلم هو القرآن، والأمم التي سبقتنا أَنـــزل الله تعالى إليها كتبًا.

وراثة الكتاب قد تكون وراثةً لحروفه وألفاظه، ويستطيع من خلالها الإنسان أن يجد في ذاكرته وحافظته ما أُنـــزل من ألفاظ الكتاب، ويستطيع أن يفهم تفسيرها اللغويّ، لكن القرآن ينبِّه أن وراثة الكتاب قد لا تكون وراثة حقيقية، فلا يتمسك صاحب تلك الوراثة بما أَمر به القرآن، ولا يتخلق بأخلاق القرآن، ولا ينتهج في سلوكه مناهج القرآن.

فالوارثون للكتاب نوعان:

١- قرأ القرآن وحفظ ألفاظه وحروفه لكنه تناقض في سلوكه معه، فما ورث من الكتاب إلا ظاهره.

٢- قرأ الكتاب فتفاعل معه بباطنه وروحه وقلبه وعقله وسلوكه وحركات جوارحه... فصار مظهرًا عمليًّا وخلقيًّا وسلوكيًّا لهذا الكتاب.

ونأخذ على سبيل المثال بعض الآيات التي تتحدث عن بعض الذين ورثوا الكتاب:

- فحين يتحدث عن بني إسرائيل على سبيل المثال يقول سبحانه وتعالى: { وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ، فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـذَا الأَدْنَى } أي يأخذون عرض الدنيا، فيشترون الدنيا بالدين، ويستثمرون نسبتهم من الدين ليحصلون من خلالها على المكاسب الدنيوية، { وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لا يَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } [الأعراف: ١٦٨-١٦٩].

إنهم صنفٌ درسوا الكتاب وورثوه، لكنهم مع ذلك باعوا دينهم واشتروا دنياهم، فبدلوا بدينهم متاع الدنيا وما فيها من الحُظوة.

- وقال سبحانه وتعالى: { ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ } [فاطر: ٣٢].

- وقال سبحانه: { وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ } [الشورى: ١٤].

ويظهر من خلال هذه النماذج القرآنية أن القرآن الكريم يتحدث عن وُرّاث الكتاب، ويقسمهم أصنافًا بحسب قربهم سلوكًا وفعلاً وحقيقةً وتطبيقًا من هذا الكتاب.

٢ - وراثة الأرض:

وهي تعني أن تصبح بلادٌ ما تحت حكمٍ يسيِّرها وتكون مقاليد الأمور فيها بيد أصحاب مقاليد أمر، فوراثة الأرض تعني حكمها وتصريف الأمور فيها والانتفاع من خيراتها.

ونجد أن القرآن الكريم لا يجعل وراثة الأرض دائمًا ثوابًا من الله تعالى على عملٍ صالح، فقد يَحكم الأرضَ من كان خيرًا ومن كان فاسدًا، فوراثة الأرض اختبارٌ قد ينجح صاحبه وقد يفشل.

- واقرؤوا على سبيل المثال قولَه تعالى: { أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ } [الأعراف: ١٠٠]

فالآية تخاطب الساسة، وأصحاب المناصب، وتخاطب الحُكّام وتقول لهم: ألا تتنبهون إلى أن الله تعالى قادرٌ على أن ينـــزل عليكم عذابًا بسبب ذنوبكم؟

وقد يكون العذاب أو العقوبة التي ينـــزلها الله عليهم معنوية، وهي الطبعُ على القلب، فلا يعود يتأثر لما هو حقٌّ، ولا يعود في قلبه الخشوع لذكر الله، ويتحول إلى مادِّيٍّ وإلى مطموس البصيرة، ويتبلد الحس فيه، ويرى عدوَّه يرتكب المجازر وينحني أمامه مقدِّرًا ومحترمًا، لأن الحس قد تبلّد فيه والبصيرةَ قد عميت: { أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ } .

- وقال سبحانه وتعالى وهو يتحدث عن فرعون: { فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ، كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ } [الشعراء: ٥٧-٥٩]

- ويقول متحدِّثًا عن فرعون: { كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ، وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ، كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ } [الدخان: ٢٥-٢٨]

- وقال متحدِّثًا عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحربهم مع اليهود: { وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا، وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا } [الأحزاب: ٢٦-٢٧]

وباستعراض هذا النوع الثاني من الوراثة نجد أن القرآن يرشدنا إلى أن وراثة الأرض إنما هي اختبار، قد يكون صاحب وراثتها ناجحًا في هذا الاختبار، وقد يكون فاشلاً.

فوراثة الأرض إنما هي كوراثة المال، فقد تكون في هذا المال محسنًا وقد تكون مسيئًا.

قال تعالى: { قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [آل عمران: ٢٦].

وقال سبحانه: { فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِدْرَارًا، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا } [نوح: ١٠-١٢].

وكل هذا يرد في القرآن الكريم على أنه قد يكون عطاءً، لكنه اختبار في الوقت نفسه، فالله سبحانه وتعالى يختبر عباده بالعطاء تارة وبالمنع تارة أخرى.

٣ - وراثة النموذج: أي النموذج الإنساني الخيِّر، الذي منه الأنبياء والرُسل والصالحون...

ووراثة النموذج لم ترد في كتاب الله تبارك وتعالى على وجه الذَّم أبدًا، فقد وردت على لسان سيدنا زكريا عليه الصلاة والسلام وهو يطلب من الله سبحانه وتعالى أن يهبَه من يرثه، ولم يكن عليه الصلاة والسلام يتحدث عن وراثة المال وهو رسول من رسل الله.

قال تعالى وهو يحكي ذلك في دعاء سيدنا زكريا: { فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ } حتى تكون حقيقةُ تلك الولاية لَدُنِّيَّة، وحتى تكون المنَّة والهبة فيها ظاهرة قوية، { وَلِيًّا } أي هب لي من يتولاَّك وحدك يا رب، فالولي لا يكون وليًّا حتى يتولى الله وحده، فإذا تولى الله وحده تولاه الله، { يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ } [مريم: ٥-٦] أي يرث هذا النموذج الذي هو زكريا عليه الصلاة والسلام ومَن سبقه من الأنبياء والمرسلين من ولد يعقوب، وهذا مثال من أمثلة وراثة النموذج الإنساني في القرآن.

ونذكر نموذجًا آخر وهو قوله تعالى: { وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ } [النمل: ١٦] ولم يكن يعني وراثةَ المال والمُلك فقط، إنما كان يعني وراثة النموذج، فقد وَرِثَ العِلم، وورث مكانةً ومنـــزلةً في القُرب، وورث فهمًا عن الله تبارك وتعالى.

إذًا: النوع الأول من الوراثة هو وراثة الكتاب، وهو نوعٌ يكون فيه من الأصناف أصنافٌ متفاوتة بحسب القرب العمليّ والفعليّ من الكتاب، وبحسب القرب التطبيقيّ والخُلقيّ والشعوريّ من الكتاب، فما كلٌّ من يرث الكتاب يرثه وراثةً حقيقية، فكم من قارئ للقرآن لا يتجاوز القرآن حنجرته، ثم هو بعد ذلك يبيع ويشتري بالدين.

والوراثة الثانية وراثة الأرض، ووراثةُ الأرض اختبار، فما كلُّ الحُكَّام مثلَ عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز، وما كل الحُكّام الذين يرثون الأرض يسوسونها بالعدل، فوراثة الأرض كما في القرآن أيضًا نوعان، فقد تكون هذه الوراثة اختبارًا نتيجتُه النجاح، وقد تكون نتيجتُه الفشل والوقوع إلى الهاوية.

أما وراثة النموذج فلا تكون إلا بالصحبة وبسريان الخُلق إلى الخُلق، فإنه بحسب ما ورد في القرآن نموذجٌ متميز، وهي نوعٌ لا نقرأ في القرآن ذمًّا له، لأنه يتحدث عن انتقال وصف، وعن سريان خُلُق، وعن تأثير حال.

٤ - وراثة الجنة: أو وراثة الآخرة، والتي لا تعد في أنواع الوراثة داخل الحياة الدنيوية، لكن القرآن تحدث عنها تفصيلاً أيضًا، لتصبح أنواع الوراثة أربعة.

ومن ذلك قوله تعالى: { وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ، أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ، الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [المؤمنون: ٩-١١].

وكذلك قوله تعالى: { وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } [الأعراف: ٤٣]

وقوله تعالى: { تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا } [مريم: ٦٣]

وقوله في دعاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام: { وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ، وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ } [الشعراء: ٨٤-٨٥]

وكذلك قوله: { وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ } أي رأينا ما وعدنا ربُّنا حقًّا { وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ }

والمقصود من الأرض هنا: أرض الجنة، { نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاء فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ } [الزمر: ٧٤].

جاء في مسند الإمام أحمد وسنن الترمذي رحمهما الله، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(الجنة بناؤها لبنة من فضة ولبنة من ذهب، وملاطها المسك الأذفر** (أي طينها المسك الأذفر)، **وحصباؤها** (أي حصاها) **اللؤلؤ والياقوت، وتربتها الزعفران، من يدخلها ينعم لا يبأس، ويخلد لا يموت، لا تبلى ثيابهم، ولا يفنى شبابهم).**

وفي الحديث الصحيح الذي رواه أبو يعلى في مسنده، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(دخلت الجنة فرأيت فيها جنابذ من اللؤلؤ** (أي قبابًا من اللؤلؤ) **ترابها المسك، فقلت: لمن هذا يا جبريل؟ قال: للمؤذنين والأئمة من أمتك يا محمد)** صلى الله عليه وسلم.

وهكذا يكون معنى الأرض هنا أرض الجنة، لينبِّه الإنسان في هذا الإيراد إلى أنه حين يفكّر بوراثة الأرض الدنيوية ولا يجد أن الطريق إلى تلك الوراثة إلا بيعَ الدينِ والضميرِ والأخلاقِ والذمةِ وبيعِ كلِّ فضيلة... حين ينطرح في أعتاب أعداء الله، عندما يرى ذلك فإنه يمتنع عن ذلك الطريق القذر طالبًا الأرض التي في الجنة.

وشتان بين من يسعى إلى وراثة الأرض الدنيوية سالكًا طريقًا قذرًا، وبين من يسعى إلى وراثة أرض الجنة، وشتان بين مُلك الجنة ومُلكٍ لا يساوي عند الله شيئًا أو جزءًا من جناح البعوضة.

دروس القرآن توقفنا أمام ما ينبغي على الإنسان أن يطلبه، فحين نقرأ هذه الأنواع الأربعة في القرآن:

ما الذي نخلص إليه؟

ما الذي ينبغي علينا أن نتوقف عنده؟

ما الذي ينبغي علينا أن نعكسه على سلوكنا؟

١- **في وراثة الكتاب:** علينا أن لا نفرح إذا تلَونا الكتاب وحده وكنا بعيدين عن التطبيق والتخلُّق والتحقُّق، فلا تكون لنا وراثة حقيقية حتى يمتزج القرآن بدمائنا وأرواحنا وحتى نكون المظاهر السلوكية والعملية للقرآن.

٢- **وراثة الأرض:** وهي قضية لا نعبأ بها ولا نلتفت إليها، فحينما يورثنا الله سبحانه وتعالى الأرض نأخذها من يد الله، لأن الله سبحانه يبلو عباده بالعطاء والمنع.

وهكذا جعل الله سبحانه من جملة عطاياه: { وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ } [الأنبياء: ١٠٥] فهذا من جملة مثوبة الله العاجلة حينما يصلح الإنسان، وحينما تصلح المجتمعات، وحين يستقيم السلوك... ولكن لا يعني حينما يرث الإنسان الأرض أنه صالح، فربما يعطي الله سبحانه الأرضَ لإنسانٍ حين يكون صالحًا، وربما يعطيها لمن ليس كذلك بدليل قوله سبحانه المتقدِّم: { أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ } .

٣- **وراثة النموذج:** وهو أمرٌ ينبغي علينا أن نسعى إليه، لا سيما وأن الله تعالى أكرمنا بأعظم نموذجٍ في الأرض وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فأعظم نموذجٍ إنسانيٍّ منَّ الله به على الإنسانية هو سيدنا محمد صلى اله عليه وسلم، فالسعي هو من أجل أن نكون وُرَّاث هذا النموذج، وكذلك حينما نقترب ممن يقترب من هذا النموذج، وحينما نتأثر بمن تأثَّر بهذا النموذج.

٤- **وراثة الجنة:** فبعد ذلك ننظر في المقاصد: { وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ } [القصص: ٧٧] فنجد أن وراثة الجنة هي ما يُطلب من الله سبحانه وتعالى، لأنها محلُّ رضوانه، ومحلُّ ضيافته وكرامته، كما قال سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام: { وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ } .

اللهم اجعلنا جميعًا من وَرَثة جنة النعيم، ورُدَّنا إلى دينك ردًّا جميلاً، بمنك وكرمك يا أكرم الأكرمين.

أقول هذا القول وأستغفر الله.